الفن القصصى فى القرآن

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

وأخيراً عزمت أن أكتب فى هذا الموضوع ، بعد أن رأيت الذين كتبوا فيه لم يتناولوه من الناحية التى يجب أن تتناول فيه ، وتجعل المخطىء يلمس خطأه فلا يسعه إلا أن يعترف به ، وهذا هو الذى يجب أن يؤخذ به المخطىء فى الإسلام ، لأنه دين الإقناع ، ولأن وسيلته هى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا جاوز من يريد الدفاع عنه هذه الوسيلة أضر به من حيث يريد نفعه ، ولا سيما فى هذا العصر الذى صار الناس يفتنون فيه هذه الوسائل فى المسائل الدينية ، ويأخذونها على أصحابها أقسى مؤاخذة

وإنى أحب أن أنبه الذين يتخذون هذه الوسائل إلى أنها تؤدى إلى عكس مايقصدون ، وتحمل بعض الناس على أن يشتط فى رأيه ، ليقسوا فى الحملة عليه ، ويذهبوا إلى أنه ملحد يجب أن يعاقب أشد عقاب ، فيصير فى نظره ونظر بعض الناس مثل غاليلو وغيره من فلاسفة أوربا ، فقد اضطهدهم رجال الدين فى أوربا على بعض آرائهم ، فصار هذا الاضطهاد محمدة من محامدهم ، وصار مذمة لمضطهديهم .

فلنقتصر على نخطئة من يذهب به عندنا حب الشهرة إلى مثل ذلك الشطط فى الرأى ، ولنبخل عليه بما يريد من رميه بالإلحاد والزندقة ، حتى لا نمكنه من أن يظهر بين الناس بما يحب ، أو يجعل نفسه ضحية من ضحايا الرأى ، فليس أوجع فى نفسه من أن نأخذه فى رفق حتى نبين للناس خطأه ، وحتى يرى أنه لا سبيل له إلا أن يعترف بالخطأ فيعترف ، فإن لم يعترف على نفسه كفاه حكم الناس عليه ، وللناس عقول تفهم به الحلال بين والحرام بين .

لقد أراد بعض الناس أن يرد على صاحب رسالة الفن القصصى فى القرآن ، ففتحوا أمامه المجال فى الرد عليهم، فأردت أن أقوم بما يجب على فى هذا الموضوع ، ليصل الناس فيه إلى رأى حاسم ، ويتصرفوا عنه إلى ما هو أجدى عليهم ، ويعرفوا أن صاحب هذه الرسالة لم يكن له أن يطفر إلى الكتابة فى موضوع القرآن ، وهو يجهل تعريف التناقض فى المنطق ، ويبنى على جهله به حكما خطيراً فى قصة إبراهيم عليه السلام ، كما جاء فى التقرير الذى رفعه الأستاذ أحمد أمين إلى عميد كلية الآداب ، وقد نشر بالعدد — ٧٤٤ — من مجلة الرسالة الغراء[1] ، وهو يدل على مستوى صاحب هذه الرسالة فى العلم ، وعلى أنه جرى فى رسالته على هذا المنوال ، فقذف بنفسه فى بحر لا يحسن السباحة فيه ، ولم يخض فيه إلا فحول العلماء ، وأكابر الحكماء ، من الطبرى إلى الزمخشرى إلى الرازى ، إلى أمثالهم فى علمهم وحكمتهم .

فقد ذكر الأستاذ أحمد أمين فى تقريره أن صاحب هذه الرسالة يرى أن القصة فى القرآن لا تلتزم الصدق التاريخى، وإنما تتجه كما يتجه الأديب فى تصوير الحادثة تصويراً فنياً ، بدليل التناقض فى رواية الخبر الواحد ، مثل أن البشرى كانت لإبراهيم أو لامرأته .

فدعوى هذا التناقض تدل على أن صاحب هذه الرسالة لا يعرف تعريف التناقض ، وعلى أنه سار فى رسالته بهذا العلم الذى لا يزال فى طور الطفولة ، فضل الصواب ، وخبط خبط عشواء ، والقرآن أجل من أن يتناول بمثل هذا العلم ، وأخطر من أن يحكم فى مسائله من لا يزال يجهل تعريف التناقض

لقد قال الله تعالى فى البشرى بهذا الغلام (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) الآية — ٧١ — من سورة هود ، وفى هذه الآية كانت البشرى لسارة امرأة ابراهيم عليه السلام

ثم قال فى هذه البشرى (قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم) الآية — ٥٣ — من سورة الحجر ، وقال (فبشرناه بغلام حليم) الآية — ١٠١ — من سورة الصافات ، فكانت البشرى فى الآيتين لإبراهيم عليه السلام .

فهل تبشير سارة مرة بهذا الغلام وتبشير إبراهيم مرة به من التناقض الذى يصح أن تضرب به قصة إبراهيم مثلا للقصة التى لا يلتزم فيها الصدق التاريخى ؟ اللهم لا ، لأن التناقض اختلاف قضيتين فى الإيجاب والسلب اختلافاً يلزم لذاته من صدق إحدى القضيتين كذب الأخرى ، فلا بد فيه من الاختلاف فى الإيجاب والسلب ، ولابد فيه من الاتحاد فى الموضوع والمحمول وقيودهما ، وليس فى هذه القصة اختلاف فى قضية البشرى من جهة الإيجاب

(١) قد اعتمد الأستاذ أحمد أمين فى رأيه فى هذه الرسالة على أن ما فيها يثير الجمهور ، وهذا قد بعد منه تعبيراً عن إبداء الرأى السريع فيها.